أقسم وهو أصدق القائلين على أنه سوف يجزيهم بأحسن منه، ولم يقل بحسن أو بخير أو بجميل، بل قال بأحسن؛ لأن في العمل حسن وأحسن، فالله يجزيهم بأحسن عمل عملوه، وتقاس بقية الأعمال على أحسنها، فيثاب على أحسن صلاة صلاها في حياته، وتساوى بها بقية الصلوات، وهكذا سائر الأعمال، وهذا من كرمه وجوده وتفضله جل في علاه.

ثم انظر إلى الجمع في الآية بين الذكر والأنثى فيمن يعمل، والإيمان والعمل الصالح في العمل، والحياة الطيبة والأجر الأحسن في الثواب، فهي اثنان من أصناف ثلاثة، فذكر الذكر والأنثى؛ ليعلم الجنس، والإيمان والعمل الصالح يشمل أصول العمل والحياة الطيبة، والأجر العظيم يستغرق كرامة الله لعباده.

﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾

تطمئن القلوب من خوفها فتسكن إلى موعود ربها مع الثقة به، وحسن التوكل عليه، وصدق اللجوء إليه.

وتطمئن من حزنها فتجد الأمن من كل غم وهم وحزن، فتعيش راضية مرضية؛ لأنها بربها ومولاها راضية.

وتطمئن من قلقها فتستقر بعد التذبذب، وتهدأ بعد التمزق، وتثبت بعد الاضطراب.

وتطمئن من الشتات، فيجتمع شملها، ويتحد توجهها، ويلم شعثها، وتنجو من شتات أمرها.

وتطمئن من كيد شيطانها، وغلبة هواها، وتحرش أعدائها، وكيد خصومها، وشرور أضدادها.

فليس للقلب دواء أنفع من ذكر الله، فمهما حصل القلب على مطلوبه ورغباته بدون ذكر الله فإن مصيره القلق والتمزق والفرق والخوف والغم والهم والحزن والكدر والاضطراب.

أبى الله أن يؤمن من عصاه، وأن يؤنس من خالفه، واتبع هواه، وكيف يطمئن من بينه وبين الله وحشة، وبينه وبين خالقه قطيعة، وكيف يأنس من نسي مولاه، وأعرض عن كتابه، وأهمل أوامره، وتعدى حدوده.

إن طمأنينة القلب هي السعادة التي يسعى لها الكل، ويبحث عنها الجميع، فمنهم من خطبها عن طريق المال فجمع وأوعى، وحصل وكنز، فإذا المال بلا إيمان شقاء وإذا الحطام بلا طاعة وباء، ومنهم من طلب السعادة عن طريق المنصب فصب من أجله دمعه وعرقه ودمه، فلما تولاه بلا إيمان كان فيه حتفه وهلاكه وخيبته،

ومنهم من طلبها عن طريق اللهو من غناء وشعر وهواية فما حصل عليها ولا نالها، لأنه عزلها عن عبودية ربّه عز وجل.

فيا من تكاتفت سحب همومه اذكر الله لتسعد، ويا من أحاط به حزنه وأقلقه همه اذكر الله لتأنس، ويا من طوقه كربه وزلزله خطبه اذكر الله لتأمن، ويا من تشتت قلبه وذهب لبه اذكر الله لتهدأ، ذكر الله دواء وشفاء وهناء، وذكر غيره داء ووباء وشقاء، ويكفي الذكر فضلاً أن الله يذكر من ذكره، ويكفي الذكر شرفاً أنه العلم الوحيد الذي يبقى مع أهل الجنة، ويكفي الذكر أجراً أنه أفضل عمل، الذكر حياة ولكن المبنّج لا يحس، والمخدر لا يشعر، والميت لا يتألم، والذكر سعادة ولكن المعرض مخذول، والناسي خائب، والمضطجع خاسر، والذكر أمن وسكينة ولكن العاصي مفرط، والفاجر هالك.

وفي كلمة ﴿ **تَطْمَئِنُّ** ﴾ رخاء ونداء وطلاوة، فكأن القلوب كالأرض، فما سهل منها فهو المطمئن، وما صعب وشق فهو القاسي الموحش المقفر، فليت سحب الرضوان وغمام الرحمان تترك غيث الوحي على القلوب لتؤتي أكلها كل حين بإذن ربها من الذكر والشكر والإنابة والمحبة والرهبة والرغبة: ﴿ **أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ** ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾

يغرس لعباده الصالحين في القلوب محبة وودّاً فيسري حبهم في الأرواح، وتنطلق الألسنة بالثناء عليهم، ويوضع لهم القبول في الأرض، ومالك الحب هو الله، ومفاتيح القلوب بيد الله، فإذا فتحها لمحبة عبد وجدت محبته وحملت مودته، إن حب الخليقة الصالحة دليل على حب الخالق جل في علاه، وإن القبول في الأرض دليل على القبول في السماء، والناس شهداء لله كما صح به الحديث، فمن أحبوه وودوه وأثنوا عليه خيرًا فهو خير بار راشد، ومن كرهوه ومقتوه وأبغضوه فهو شرير خاسر.

إن القلوب خزائن الرحمن، وإن ألسنة الخلق أقلام الحق، وإن المؤمنين شهود عدول على من أحبوه أو أبغضوه، إن لمحبة الناس أسباباً، ليحبوا من أحبوه كصدق إيمانه بربه، وطهارة باطنه، ونقاء نفسه، وسلامة صدره، وقوة إخلاصه.

وإن لبغض الناس أسباباً ليبغضوا من أبغضوه: من نفاقه وفجوره واستهتاره بحدود الله، وتنكره لدين ربه، وظلمه وجوره، وسواد قلبه، وفساد روحه، وخسة طبعه.

إن من يملك الأبدان لا يملك القلوب، وإن من تنافقه الألسن قد لا تحبه الأرواح، إن السوط والسيف والهيبة لا تجلب حباً ولا تدفع كرهاً، وإنما الجالب للمحبة والدافع للبغض رب العالمين، محبة العباد لا تشترى بالدرهم والدينار، ولا تعرض في الأسواق، ولا ينادى عليها في المحافل، إنها نعمة يهبها الله من يشاء من عباده، فتجد هؤلاء المحبوبين محفوفين بالمحبة، مستقبلين بالمودة، مغمورين بالثناء الحسن، إن حضروا حيتهم القلوب، وإن سافروا شيعتهم الأرواح، فلهم مساكن في نفوس العباد، ومنازل في قلوب الخلق، رحمة من ربك ولطفاً من إلهك، صح في الحديث: «**إن الله إذا أحب عبداً دعا جبريل فقال له: إني أحب فلاناً فأحبه، فيحبه**

جبريل، ثم ينادي في أهل السماء: إن الله يحب فلاناً فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض، وإذا أبغض عبداً قال لجبريل: إني أبغض فلاناً فأبغضه، فيبغضه، ثم ينادي في أهل السماء: إن الله يبغض فلاناً فابغضوه، ثم يوضع له البغض في الأرض»[1].

إذاً فالحب والبغض من عند الله، فمن أراد محبة في قلوب الخلق ومودة عند المؤمنين فليطلبها ممن يملكها، جل في علاه، بطاعته والإذعان لأمره، واتباع رسوله، والاهتداء بهدايته، وصدق النصح لعباده، وسلامة النية، وحسن الطوية، وطهر الضمير، حينها فليبشر بحب الله له ومودة المؤمنين.

﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴾

عن ماذا يتساءل هؤلاء الناس ولماذا هم مختلفون؟! إنهم يتساءلون عن اليوم الآخر الذي ما سمع الناس بمثله وما طرق العالم شبيهه، وهؤلاء الكفار المختلفون لهم أقوال فيه، ولكنه والله نبأ عظيم، وخبر ضخم، وقصة كبرى، كيف لا يكون نبأً عظيماً وفيه يتنزل الملك الجبار لفصل القضاء، وفيه تتطاير الصحف، ويوضع الميزان، ويمد الصراط، وفيه تكور الشمس وتكدّر النجوم، وتسجّر البحور، وتسيّر الجبال، وتحشر الوحوش، وتعطل العشار، وتخرج النفوس، وتضع كل ذات حمل حملها، وتذهل كل مرضعة عما أرضعت، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى، ولكن عذاب الله شديد.

والله سمى زلزلة الساعة شيئاً عظيماً، فلا أعظم ولا أدهى ولا أشد منه، فمثل لنفسك تلك المشاهد والصور والمواقف التي تجعل الولدان شيباً، وحضر قلبك لهذا المقام العظيم الذي سوف تعيشه لحظة بلحظة، وتراه رأي العين، فلا فدية ولا خلة ولا شفاعة إلا لمن استحقها، واستشعِر هول ما سوف تشاهده وفظاعة ما تراه، فإن الرسل يُسألون ماذا أجبتم؟ قالوا: لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب؛ فكأنهم نسوا ماذا قال لهم قومهم من هول المقام وفظاعة الموقف.

وتذكر يوم يطلب الوالد من ابنه ـ وقد رباه وغذاه وكساه ـ حسنة واحدة فيأبى ويمتنع، ويقول: نفسي نفسي، وتأتي الأم لوحيدها وتطلب من وليدها، وقد حملته وأرضعته وتعاهدته، تطلب منه حسنة فيبخل بها على أمه وينادي: نفسي، نفسي، وتفكر في موقف كل رسول وهو، معصوم من الذنب، مقبول عند الرب، يصيح: نفسي نفسي، ذلك اليوم عسير، والخطب صعب، والحادث جلل، والمشهد مذهل، والوصف يقصر، والبيان يعجز، واللسان يتلعثم، والذاكرة تخون، ومن أراد معرفة ذاك اليوم فليطالع بقلب مخبت منيب تائب ما ذكر الله عنه في كتابه، وما وصفه رسول الله ﷺ بعد أن يخرج هذا العبد من قلبه كل شبهة تحجب الدليل، وكل شهوة

تمنع الاعتبار، فإن العجماوات تصيح من هول يوم القيامة، وإن الجبال تنسف لذلك اليوم، وإن الأرض تميد، وإن السماء تنشق، وإن القبور تبعثر، وكل شيء يغير فاللهم سلم سلم، فإليك المشتكى، وعليك التكلان، وبك المستعان، وأنت المستغاث، ولا حول ولا قوة إلا بك.

﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ ﴾

بذنوب العباد فسد الهواء، بخطايا الناس تكدر الماء، بسيئات بني آدم تعطلت الأرزاق، كان آدم في الجنة فأكل من الشجرة، وأهبط إلى الأرض لتبدأ رحلة الصراع بين الخير والشر والحق والباطل، ولقد كانت الأرض طاهرة حتى لوثها قابيل بدم هابيل، وكانت الدنيا تستفيق على صوت التوحيد حتى أزعجتها أصوات الإلحاد من الحمقى الأنذال الذين يقول أحدهم: أنا أحيي وأميت إلى آخر تلك القائمة الزائفة الشوهاء من هؤلاء الرقعاء السخفاء، فكل خراب في العالم أساسه ظلم العباد، وكل دمار في الكون سببه جور الناس على حد قول أبي طالب:

كلما أنبت الزمان قناة

ركب المرء في القناة سنانا

إن خطايا الخلق تظهر في عقوبات الإله، يجدها الإنسان في الكون من احتباس القطر، وهوج الريح، وقصف الرعد، وهيجان البحر، وغلاء الأسعار، وجور الحكام، وظلم القضاة، وشح الموارد، وجدب الديار، وفساد الثمار، وذبول الأشجار، وتعكير الجو؛ لأن الذنب مشؤوم، والخطيئة عقيمة، والسيئة قاتلة.

كيف تصلح الأرض وقد أُغضب من في السماء، كيف يسعد المخلوق وقد خالف الخالق، كيف تقوم للناس حياة وواهب الحياة سبحانه يعصى ويتجاهل أمره.

إن سنة الله في الدول والشعوب والناس لا تتبدل، فمع العدل والتقوى يسعد الناس، وتدور الأرزاق، وتتوفر الأقوات، وتقوم الأسواق، وتسكن الفتن، ويعم الأمن، ومع الظلم والمعاصي يحصل الخلل في كل شأن من شؤون الحياة، كما تقدم.

فانظر إلى عصر رسول الله ﷺ وخلفائه الراشدين، فإنها الفترة الزمنية الزاهية الذهبية في حياتنا، إنها غرة في جبين الدهر، ودرة في تاج الزمان، وبدر

في ليل العالم لما حصل في زمنهم من عزة للدين، وطاعة لرب العالمين، وقيام بكل ما يرضي الله من قول وعمل واعتقاد.

ثم انظر إلى عصر الحجاج وأبي مسلم الخرساني والفاطميين والإسماعيلية، وكل ظالم وزنديق ومارق وعدو لله، كيف سفكت الدماء، وهتكت الأعراض، ونهبت الأموال، وسلب الآمن، وضاعت الأمة، وعمت الفتنة، وتفاقم الحال، وساءت المعيشة، وعمت البغضاء، وانتشر التقاطع، وظهر الخلاف، وبرز الشقاق، وبزغت البدع، وتوارى العدل، وغرب الفلاح وما ربك بظلام للعبيد.

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾

من النفس يبدأ التغيير، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، البداية من داخل العبد، من صلح حاله بقيت نعمته، ودامت عافيته، واستمر الهدى معه: ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ ومن فسد وأعرض حلت به النقمة، وأدبرت عنه النعمة، ونزل به الشقاء: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾.

من أراد ما عند الله من العناية والكفاية والهداية فعليه أن يشرح صدره للحق الذي بعث به محمد ﷺ، ويتقبله بقبول حسن، ويجاهد في الله حق جهاده، كما هي تمام النصح لله والرسول وللمؤمنين، مع سلامة الباطن، والتقيد بتعاليم الشرع، وصدق الهجرة إلى الله، بتوحيده وشكره وذكره وطاعته، ومن تعرض لمقت الله وغضبه بتعطيل أمره، وتفريغ نصوص وحيه من محتواها، والإدبار عن التقوى، والانحراف عن الجادة، والزيغ عن الحق، والتفلت على حدود الله، فليبشر بعذاب واصب، ونكد حاضر، وشقاء لازم وهم دائم؛ جزاء تنكره للحقيقة؛ وشططه في سلوك الطريقة، وبغيه وعدوانه ولا يظلم ربك أحداً.

هل يظن العبد أن الهداية سوف تطرق عليه بابه وتسأل عنه في مضجعه، كلا فالهداية يُبحث عنها في مظانها في كتاب الله المشرق المغدق النير، في السنة المطهرة النقية المباركة، في الصف الأول من بيوت الله حيث النفحات هناك والعناية واللطف، في خلع أسمال الباطل، في التبرء من المعتقدات الخاطئة، والشبهات المهلكة، والشهوات القاتلة، في العكوف على الوحي كتاباً وسنةً ومدارسةً وفهماً وتدبراً وعملاً ودعوةً وجهاداً.

إن سلعة الله غالية لا يعرضها الباعة في أسواقهم، ولا ينادي عليها التجار في متاجرهم، إنها أغلى وأعلى من هذا الامتهان، إنها ثمينة يستاهلها من طلبها وحرص عليها وجاهد من أجلها، وبذل الغالي والرخيص لينالها، ودفع نومه وعرقه ودمعه

ودمه وروحه ثمناً لها، حينها سوف تزف له أجمل ما تكون في أبهى حُلل وأزهى لباس وأعظم تاج.

لما غيّر بلال بن رباح العبد الفقير نفسه واستقبل الهدى؛ تُوج بتاج مؤذن الإسلام، وصاحب الرسول ﷺ، وضيف الرحمن في الفردوس.

ولما غيّر أبو جهل الوجيه المشهور ما في نفسه، وقلب بصيرته، وانسلخ من فطرته؛ أُهين وأُرغم أنفه، وذاق المذلة، وأدركه الخزي عاجلاً وآجلاً.

إن على العبد أن يبدأ هو برحلة النجاة وهجرة الإنقاذ، ويركب في سفينة الحق لئلا يدركه طوفان الغضب فيغرق مع من غرق من المردة الملعونين.

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾

هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم من المعتقدات والأقوال والأفعال والأحوال والأخلاق والآداب والسير، فهو يدل على الأكمل والأحسن دائماً، فكلما اشتبهت الأمور واختلطت الآراء وماجت القلوب، جاء القرآن بهداه وسناه، فهدى إلى الأرشد، ودل على الأتقى والأسمى.

لماذا القرآن وحده يهدي للتي هي أقوم؛ لأنه من فوق، وكتب البشر من تحت، ولأنه من السماء، ومذكرات العبيد من الأرض، ولأنه من رب العالمين، أما هي فمن الطين، ولأنه من عند الله، وآراؤهم من أفكارهم المضطربة وقلوبهم الزائغة، فالذي أنزل القرآن هو الخالق، والذي صنف ما يعارضه مخلوق. وعظمة القرآن في أن من تكلم به أحكم الحاكمين، وأحسن الخالقين، وخالق الناس أجمعين، فكيف لا يكون كلامه فوق كل كلام، وهداه أعظم من كل هدى؛ لأنه عليم خبير بصير، ومن سواه جاهل غبي إلا من اهتدى بهداه، فبقدر اهتداء العبد بهذا النور يحصل له من سداد الرأي ونور البصيرة على قدر ما بذل وطلب واستفاد.

فالقرآن يهدي للتي هي أقوم في المعتقدات، فهو يدعو للتوحيد الصحيح، والدين الخالص، والعبادة المعتدلة، وهو يهدي للتي هي أقوم في الحكم، من حيث العدل والإنصاف، ومراعاة الحقوق، والبعد عن الظلم والهضم والقهر والاستبداد ﴿فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ وهو يهدي للتي هي أقوم في الأخلاق؛ فهو يدعو إلى طهر الضمير، وزكاء النفس، وسلامة الصدر، ونقاء اللسان، وعفاف الخلق، ومكارم الصفات، وأشرف الآداب: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾.

وهو يهدي للتي هي أقوم في البيع والشراء، وسائر العقود، وكافة المنافع، فلا غش ولا غرر ولا نجش ولا ربا ولا حيلة ولا خديعة ولا غبن ولا تدليس ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾.

وهو يهدي للتي هي أقوم في المعيشة والكسب والإنفاق والبذل، فلا إسراف ولا تقتير، ولا بذخ ولا شح ولا إمساك ولا تضييع ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً﴾.

وهو يهدي للتي هي أقوم في الدعوة والإصلاح والتربية، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فلا غلظة ولا فظاظة ولا مداهنة ولا تمييع، بل حكمة ولين ورفق ورشد وهدى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾.

وهو يهدي للتي هي أقوم في الآداب والفنون، فلا تعد على الحدود، ولا استخفاف بالقيم، ولا تلاعب بالمبادئ ولا جفاف وجمود وجحود ورهبانية، وإنما جمال باحتشام، ومتعة بأدب، وذوق بعفاف، وحسن بالتزام: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً﴾.

﴿ يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ﴾

واجب على من أقبل على الدين أن يقبل عليه بهمة وحرص، وأن يبذل جهده في التمسك به وحمله بأمانة وإن تلقى الأمر بكسل وبرود برهان على موت الهمة ودناءة النفس، إن الضعيف مضطهد، وإن القيام بشعائر الدين على صورة من الترهل والهزال؛ دليل قائم على عدم المحبة والاقتناع.

إن الصلاة المقبولة تحتاج إلى قوة في حضور القلب وخشوعه، واستحضار النية، ومحاربة الوسوسة وواردات النفس، وإن التلاوة الصحيحة تحتاج إلى قوة من حيث حسن التدبر وجميل التأثر ومدافعة الشرود، وإن الدعوة إلى الله تحتاج إلى قوة في جمال العرض، وبلاغة الوعظ، والإبداع في الخطاب، والصدق في النصيحة: ﴿ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا ﴾.

إن المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف؛ لأن المؤمن القوي قوة للدين، وهيبة للملة، فعطاؤه أكثر، ونفعه أوفر. الكلمة القوية تهز القلب، وتهش لها النفس، وتؤتي أكلها من الاستجابة والمتابعة، وإن الحجة القوية تدفع الباطل وتدحض الشبهة، وإن القصيدة القوية تسري بين الناس، وتنال القبول والحظوة، وإن الكتاب القوي يكسب الخلود والذيوع، والانتشار.

القوي يصمد في الأزمات ويثبت في المصائب، ويدافع عن مبادئه وينتصر لدينه، والضعيف يغلب عند أقل الحوادث، وينهار في ميدان الكفاح، فيؤتى الإسلام من قبله، ويدخل العدو من بوابته.

شبهة لا تردها قوة يقين تصبح كفراً، وإلحاد لا يردعه إيمان يصير ديناً للمنحرفين، وشهوة لا يدمغها قوة صبر تحول العبد إلى بهيمة وكسل.

ماذا ينفعنا مؤمن ضعيف كسول خامل؟ وماذا يجدي علينا جيل بائس محطم غارق في الشهوات؟ وهل يصنع النصر على أيدي جبناء أغبياء، وهل يصاغ النجاح بأماني كاذبة، ووعود خائبة، وظنون خداعة.

إن صلاة الفجر لا تدرك إلا بعزيمة ونشاط، وإلا انهزمت النفس تحت مطارق النوم والراحة؛ ولذلك صح أنه ﷺ إذا سمع الصارخ وثب للصلاة ليلاً، بلفظ وثب لتعي مدلولها وسرها.

لقد استعاذ عليه الصلاة والسلام من العجز والكسل، فالعجز في الإرادة، والكسل في الحركة، وهما مصدر كل فشل وإخفاق، إن الله ثبط المنافقين لأنهم لو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة، ونصر الله المجاهدين؛ لأنهم صبروا وثبتوا وتقدموا، وهذه سنة مطردة: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾.

يقول عمر بن الخطاب فاروق الإسلام: (اللهم إني أعوذ بك من جلد الفاجر وعجز الثقة)، ففاجر مصابر وتقي منهار مصيبة؛ لأن الفاجر الفاتك النشيط شيطان مريد، والتقي الخامل العاجز المقصر؛ جبان رعديد، والإسلام يريد رجلاً قوياً حازماً بصيراً:

لا يدرك المجد إلا سيد فطن
لما يشق على السادات فعال
لا خامل جهلت كفاه ما بذلت
ولا جبان بغير السيف سأَّلُ
لولا المشقة ساد الناس كلهم
الجود يفقر والإقدام قتالُ

نريد عالماً ربانياً قوياً؛ لأن الضعيف يغلبه الوهم وينتصر عليه الظن، ولا يؤدي الأمانة كما هي، ونريد فقيهاً قوياً لأن الضعيف لا تمييز عنده، ولا برهان لديه، ولا فرقان يحمله.

ونريد مجاهداً قوياً؛ لأن الضعيف مسحوق مخذول يؤتى الإسلام من قبله، فإذا اجتمع في العبد قوة وأمانة وتقوى وعزيمة ومراقبة وصرامة فهو الرجل حقاً: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ﴾.

﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾

تعظون الناس ولا تتعظون، تنصحون الناس ولا تنتصحون، تأمرون بالمعروف ولا تأتونه، وتنهون عن المنكر وترتكبونه، قولكم جميل، وفعلكم قبيح، النطق حسن، والفعل سيئ، تزكون الناس بكلامكم وأنفسكم مقفرة من البر، موحشة من الهدى، يستنير الناس بوعظكم الخلاب ونصحكم الجذاب، وأنتم في ظلمة المعصية واقفون، وفي ليل الخطايا حائرون، إن من أعظم النكبات على دين الله إخفاق حملته ودعاته في العمل بتعاليمه، حينها يصبح فعل هؤلاء حجة قاطعة لكل مارق، وبينة واضحة لكل منافق يرتكب المعصية، بدليل فعل هؤلاء السيئ، وترك الطاعة بدليل عمل هؤلاء الخاطئ، فلا يثق الجهلة بنصوص الشرع، لأن أناساً ممن يحملون هذه النصوص عطلوا العمل بها والاهتداء بهديها والانتفاع ببركتها.

الطبيب إذا تناول السم أمام المريض كيف يثق فيه المريض أو ينتفع بدوائه وعلاجه؟

وغير تقي يأمر الناس بالتقى

طبيب يداوي الناس وهو عليل

الخياط إذا مزق الثوب فقد مصداقيته في الخياطة، النجار إذا كسر الباب خسر ثقة الناس في معرفته وحذقته، والدعاة إلى الحق والفضيلة إذا أهملوها وهجروها غسلت الأمة أيديها منهم، يصبح كلامهم الرنان رماداً تذروه الرياح، يصبح وعظهم البليغ عهنًا منفوشاً، تصبح كتاباتهم وتآليفهم ركاماً من الزيف والغش والبهرجة.

وحملة الرسالة بالذات أمناء على الملة، أوصياء على الجيل، حفاظ للمبادئ، فأي عثرة منهم ثلم في جدار الشريعة، وجرح في جسم الديانة.

إن الربانية في العلم والدعوة ليست عمائم كالأبراج، والأكمام كالإخراج، والفتاوى معلبة جاهزة ترضي أهل الشأن، ويكسب من ورائها الدرهم والدينار، والمنصب والعقار «**يؤتى بالرجل فيدور في النار فتندلق أقتابه كما يدور الحمار برحاه، فيقول أهل النار: مالك يا فلان، ألست كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر، قال: بلى، كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن المنكر وآتيه**» هكذا وصف المعصوم ﷺ هذه الفئة ومصيرها عند الله عز وجل، وأحد الثلاثة الذين تسعر بهم النار يوم القيامة، قارئ قرأ القرآن ولم يعمل به.

إن حفظ المتون، وجمع الفنون، وإلقاء الخطب الرنانة، والجلجلة بالمواعظ الطنانة، سهل يسير، يجيده الجمع الغفير، ويقوم به الكثير، لكن تطبيق هذه التعاليم والعمل بها، وتنفيذ أوامرها، واجتناب نواهيها، والصدق في حملها، ومراقبة الله في دلالتها أمر شاق صعب متعب لا يقوم به إلا ربانيون طهرت أرواحهم، زكت ضمائرهم، نبلت أخلاقهم، حسنت سيرتهم، وصفت سريرتهم:

يا أيها الرجل المعلم غيره

هلا لنفسك كان ذا التعليم

ابدأ بنفسك فانهها عن غيها

فإذا انتهت عنه فأنت حكيم

يا أيها الدعاة إلى المبادئ المقدسة، يا حملة الرسالة ويا أمناء الكلمة، لم تقولون ما لا تفعلون؟! فقهاء في القول، جهلة في الفعل، أولياء على المنبر، عتاة في الميادين.

إن دمعة من خاشع أصدق من مائة خطبة من واعظ، وإن قطرة من شهيد أبلغ من مائة قصيدة حماسية من شاعر، وإن غضبة لله من عالم أوقع في القلوب من مائة درس في النهي عن المنكر.

إن أعظم ما يفعله صاحب الدعوة أن يكون سراجاً وهاجاً بعمله وصدقه وإخلاصه وخلقه، إن فرعون قال: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ ويشهد الله أنه كاذب خبيث ماكر، والمنافقون قالوا: نشهد إنك لرسول الله، فقال الله: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ والرعديد الجبان يقول في غزوة تبوك: «ائذن لي ولا تفتني» أي أخشى على نفسي الفتنة إذا غزوت الروم من فتنة النساء، فيقول الله: ﴿أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾.

إن مصيبة أحبار اليهود ومن شابههم من هذه الأمة أنهم تعجلوا ثواب علمهم في دنياهم الفانية الزهيدة، أرضوا الناس بسخط الله فطوعوا النصوص لشهواتهم، ولووا أعناق الأدلة لأهوائهم، إن خدم الدليل مقاصدهم فهو ثابت محكم صريح، وإن عارض الدليل أغراضهم فهو محتمل مؤول له وجوه وله معان أخرى، إن وقعوا في ملذات الدنيا استدلوا بقوله: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ﴾ إن تركوا الأمر والنهي والقيام لله ذكروا الحكمة والرفق واللين، إن سعوا للمناصب والجاه أوردوا قول يوسف عليه السلام: ﴿اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ والله عز وجل لا يلعب عليه كما يلعب على الصبيان، ولا يخادع كما يخادع الولدان، فهو العالم بالسرائر، المطلع على ما في الضمائر، العليم بالنيات، الخبير بالخفيات: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾.

ويلكم من الله: معكم كتاب من الله فيه الهدى والنور وأنتم تعلمون ما فيه فهلا زجركم علمكم بالكتاب عن فعلكم المشين؟! هلا أثر فيكم هذا الكتاب الذي تدرسونه لأن العالم بحجة الله ليس كالجاهل بها، والمطلع على شرع الله ليس كالغافل عنه.

إن العلماء إذا أعرضوا وفسدوا كانوا أكثر إساءة، وأكبر معصية من الجاهل الغر الذي ما استضاء بالعلم.

فيا من تعلم العلم وتلقن الحكمة ثم أعرض عن العمل إنما أنت شاهد على نفسك، ساع في هلاكك؛ لأن المنتظر والمأمول من صاحب العلم تقواه لمولاه، وسعيه

في رضا ربه ومحافظته على ما في الكتاب، ثم سألهم سؤال توبيخ وتبكيت فقال: ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾.

أين العقول السليمة؟ أين الآراء السديدة؟ أخفقتم في النقل، أعرضتم عن الكتاب، وفسدتم في العقل فعرضتم أنفسكم للعذاب، إن العاقل يدله عقله على الهدى ويجنبه الردى، وإن من آثر العذاب على الرحمة، والغواية على الرشد لفاسد العقل، سيئ التدبير، غائب الرشد، ولو كان محنكاً في أمور الدنيا، داهية في طرق السياسة، ماهراً في الكسب، ذكياً في المعيشة.

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾

كلمة ﴿رَبَّكَ﴾ إشعار بالرعاية، وسابق المنة، وقدم النعمة، فإن من رباك سيظهرك على من عاداك، (وبالمرصاد) فيها من التخويف والتهويل ما يبهر الألباب، ويخلع النفوس، فهو سبحانه يخفي مكره عن أعدائه حتى يترصدهم فيأخذهم على غرة، فإن عذابه بغتة، وعقوبته فجأة، فهو بالمرصاد لأعدائه يبرمون وينكث ما أبرموا، يدبرون فيقتل ما دبروا، والراصد دائماً أقدر على البطش من المكشوف لعدوه، لأن عنده من فنون الحيل وصنوف المباغتة وأنواع المداهمة ما يبطل على الخصم حيلة، ويعمي سبله، ويظهر خلله.

وقل لي بربك: أي زلزال هذا التهديد لكل كافر رعديد إذا كان الله بالمرصاد، لقد أمر الله عباده أن يقعدوا لأعدائه كل مرصد، وأخبر أنه أعد للجن المردة شهاباً رصداً، لكن لما وصف نفسه الجليلة قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ وهذه الكلمة تصلح عنواناً لكل موعظة، ينذر بها العصاة؛ لأنها عامة مخيفة مرعبة، فهو بالمرصاد لمن نقض العهد، وأخلف الوعد، وفجر في الخصومة، وخان الميثاق، وهو بالمرصاد لمن ترك الطاعة، وارتكب المعصية، وتعدى الحدود، واقترف المحرمات، والله مرصد لأعدائه ويحبك لهم نهاية البؤس، وخاتمة الدمار وطريقة المصرع، وكيفية الأخذ، فلا يلعب أحد على نفسه فينخدع بحلم الرحمن الرحيم، فإنه يمهل ولا يهمل، وليعلم كل عبد أن ربه مطلع على أعماله، عالم بأحواله، بصير بمآله.

إن أحمق الناس من غرته نفسه، وخدعه هواه، وزين له الشيطان طريق المعصية حتى وقع في الفخ.

إن العبد في جموح من طغيانه، وعبث من عدوانه، وغمرة من جهله، لا يحسب مع ربه للعواقب حساباً، مع أن ربه بالمرصاد، لا تخفى عليه خافية، ولا تذهب عليه شاردة، ولا تغيب من علمه غائبة، وانظر إلى تفنن الأخذ في مصارع الأعداء، وتنوع

العقوبات في البطش بالخصوم، فمنهم من أخذ بالريح الصرصر؛ فصار أثراً بعد عين، ومنهم من أبيد بالصيحة؛ فصار خبراً للرواة، ومنهم من خسف به؛ فصار قصة للسمر، ومنهم من أغرق، فصار شلواً ممزقاً، كل ذلك لتعلم عظمته، وقوة بأسه، وسعة قدره، وإن رباً قويّاً قديراً غنيّاً يقول لعبد ضعيف فقير حقير كسير: ﴿ **إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ** ﴾ لجدير أن يتقي بأسه، ويحذر أخذه، ويخشى عذابه، ومن كان في شك فليطالع سجل العالم، وديوان الحياة، وتاريخ الدهر؛ ليرى مصارع الغابرين، ونكبات المنحرفين، ومنازل الهالكين: ﴿ **وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ** ﴾.

﴿قُتِلَ الإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾

ما أشد تنكر هذا الإنسان لربه، وما أعظم جحوده لخالقه، خلقه ربه من العدم فشك في وجود ربه، وأطعمه من جوع فشكر غيره، وأمده بالقوة فعصى بها مولاه، هذا الإنسان إن لم يهتد بهدى الله فهو كنود، يمرض فيخشع، فإذا شفاه ربه نسي وتكبر، يفتقر فيخضع، فإذا أغناه الإله طغى وبغى، يبتلى فينكسر ويدعو، فإذا عافاه خالقه تجبر وعتى، عنده آلاف النعم فيكتمها ويطلب غيرها، لديه مئات المواهب فيجحدها ويسأل سواها، ثقيل على الطاعة، خفيف إلى المعصية، بطيء عند الأوامر، سريع عند المناهي، قدري في الطاعة، جبري في المعصية، يتلهف على المفقود، ولا يشكر الله على الموجود.

سماع الأغاني أخف عليه من سماع المثاني، سهرةٌ لهوٍ أحب إليه من ساعة مناجاة، رفقة البطالين أشهى لديه من صحبة الصالحين، يأكل الطعام ولا يشكر من أطعمه، ويشرب الشراب ولا يحمد من سقاه، النعم تغمره من كل مكان وهو في شرود ونسيان، خلقه ربه فعبد سواه، وأمره ونهاه فاتبع هواه، لو أهدى له مخلوق خميلة لشكرها، كل نعمة لديه من ربه قد كفرها، يحبِّر القصائد في مدح العبيد، ولا يمدح ذا العرش المجيد، يسطر المقامات في الثناء على المخلوق الهزيل، ولا يسطر مقامة في الثناء على العزيز الجليل، يقف على أبواب البخلاء، ولا يقف على باب رب الأرض والسماء، مع العلم أنه لا يصله منهم ذرة إلا بقدرة الملك الحق، وبمشيئة الغني الحميد، يمنحه رب المال، فيقول: إنما أوتيته على علم عندي، يوليه ربه قطعة من أرضه فيقول: أليس لي ملك هذه الأرض، بقوتي ملكت وبقدرتي حكمت، يهبه ربه قوة الأعضاء وصحة الجسم فيركض مغروراً ويقترف الخطايا مسروراً.

إذا كان له عند ربه مسألة ذل وتمسكن حتى ينالها، ثم يمر متكبراً جاحداً، إذا أصابته رزية بكى وشكى وتأوه، فإذا كشفها الله ذهب مختالاً فخوراً، إذا جاع

انكسرت نفسه، فإذا شبع سهى ولها ولغى، يأكل بلا حمد، ويشرب بلا شكر، ويسكن بلا ثناء، ويتنعم بلا اعتراف، يمن على ربه ركعات بلا خشوع، وتلاوة بلا تدبر، وصدقة بلا نية، ولا يحفظ لربه نعمة الحياة والرزق والمال والولد، والعينين البصيرتين، والأذنين السميعتين، والشفتين واللسان واليدين، والأنف والرجلين، تصب عليه النعم صباً، وتنهمر عليه العطايا انهماراً وهو لئيم مريد عنيد.

على من تلعب يا كفور، ومن تخادع يا مغرور، إن صلى سهى، وإن قرأ لها، وإن تكلم لغا، يأخذ ولا يعطي، يحفظ عدد النعم ووصفها، وينسى شكرها والثناء على من أهداها، جمّاع منّاع طمّاع، إن مرض حسب أيام المرض ولياليه وساعاته، وإن تعافى نسي شهور العافية وأعوامها، إذا أعطى درهماً فهو مثل أُحُدٍ عنده، وإن أعطاه ربه قنطاراً من ذهب فهو ذرة في ميزانه، إلا من آمن وشكر، وأحسن وصبر، وأطاع وذكر.

﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾

هذا أصدق مدح لربنا جل في علاه. فالله نور هذا العالم، فكل نور شع فمن نوره جل في علاه، فالقلوب في ظلمة حتى يصلها نور توحيده، والبصائر معتمة حتى يطلع عليها نور هدايته، والعالم في دياجير الظلم حتى يشرق عليها نور ربه، فالنفس النيرة إنما استنارت بنور الله لما عرفت شرعه وأبصرت هداه، والعقل النير إنما فتح عليه لما أصابه حظه من نور الله، والكلمة السديدة إنما حسنت وجملت لما أضاءت بنور ربها، والفعل الحسن الراشد إنما صلح لأن الله وهبه من نوره، والمجتمع المستنير إنما استقام أمره لما أدركه نور من نور ربه، فكل نور في العقول والنفوس والأفئدة فمن الملك الحق، فبنوره أشرقت السماء والأرض، وصلح أمر الدنيا والآخرة، واستقام الحال، وطاب المآل، وكتبه سبحانه نور يبصِّر بها العُمْي، ويهدي بها الضلال، ويرشد بها أهل الغي، ورسله نور يبعثهم بالحق فينقذون بإذنه من الهلاك، ويردعون من الردى، وينجون من المعاطب، وصراطه المستقيم نور به يهتدي المهتدون، وعليه يسير العابدون، وفيه يسلك الصادقون، ومن أهل العلم من قال في قوله تعالى: ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ قال: منورهما يعني الشمس والقمر والكواكب، ولا تعارض، فكل نور معنوي أو حي ظاهر أو باطن فمن لدن الحكيم الخبير جل في علاه.

فليطلب النور من عند الله فإن كل أرض لا يشرق عليها نوره فهي أرض ملعونة، وكل قلب لا يبصر نوره قلب غاو، وكل نفس لم تهتد بهداه نفس خاوية، العالم إذا لم يهبه الله من نوره صار عالم سوء، وصاحب زور، وحامل بهتان، والحاكم الذي حرمه الله نوره غادر جبار، غشوم ظلوم، وكل عبد حرم نور ربه فقد تم خسرانه وعظم حرمانه.

أعظم خصائص القرآن أنه نور؛ لأنه من عند الله جل في علاه، فهو الذي تكلم به وأوحاه، وفصل آياته، وأحكم بيناته: ﴿ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ

عِبَادِنَا﴾ ومحمد ﷺ نور؛ لأن الله بعثه ووهبه من نوره وهداه بهداه ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾.

وبقدر اهتداء العبد ومتابعته وصدقه في طاعته يمنحه ربه نوراً من نوره يبقى معه حتى يصل به إلى جنات النعيم.

والمؤمنون لما صدقوا في العمل بالكتاب واتباع الرسول ﷺ جعل الله نورهم يسعى بين أيديهم جزاءً وفاقاً، ولما أعرض من أعرض من أعداء الله حرمهم الله ذلك النور فبقوا في الظلمات فما لهم من نور، فنور الفطرة مع نور الهداية، ونور الكتاب مع نور الرسول، ونور البصيرة مع نور الحجة ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾.

﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾

فقدره عظيم، ووجه كريم، وفضله واسع، وجوده شامل، ولكن العباد ما قدروا الله حق قدره، خلق الخلق وتكفل بالرزق، وحفظ النفوس، واطلع على السرائر، وعلم النيات، ولكن الناس ما قدروه حق قدره.

عفا وكفا وشفا، علم وحلم وحكم، أغنى وأقنى وأعطى، ساد وجاد وهو رفيع العماد، ولكن الخلق ما قدروه حق قدره.

الأرض جميعاً قبضته، والسماوات مطويات بيمينه، والكون ذرة في ملكه، والخليقة فقيرة إليه، ولكنهم ما قدروا الله حق قدره.

من أشرك معه غيره، وعبد معه سواه، وادعى له نداً، واخترع له مثيلاً، وجعل له شبيهاً، فما قدره حق قدره.

من أقسم بغيره، أو أعطى به وغدر، أو حلف به وفجر، وأخذ نعمه فما شكر، ونسيه وما ذكر، فما قدره حق قدره.

من تعدى حدوده، وارتكب محرماته، واستهزأ بآياته، وألحد في أسمائه وصفاته، فما قدره حق قدره.

من حارب أولياءه، وناصر أعداءه، وعصى أمره، وغمط بره، واستهان بعظمته، فما قدره حق قدره.

من أعرض عن كتابه، وشاق رسوله، وكذب بلقائه، وتهاون بوعده ووعيده، فما قدر الله حق قدره.

حق قدره أن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر، ويحب حباً يملك على العبد كل حركة فيه.

حق قدره أن يفوض الأمر إليه، ويتوكل عليه، ويرضى بحكمه، ويستسلم له، وينقاد لأوامره، ويذعن لقضائه.

حق قدره أن لا يخالف، ولا يحارب، ولا يمثل، ولا يشبه، ولا يكيف، ولا تضرب به الأمثال، وتصرف لغيره الأعمال.

حق قدره أن يقصد بالسعي، ويخلص له العمل، ويجرد له التعظيم، ويفرد بالربوبية والألوهية والأسماء والصفات.

حق قدره أن يرضى به ولياً وروباً وألهاً وحاكماً وكفيلاً ووكيلاً وحسيباً؛ لأنه وحده المتفرد المتوحد، وهو الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

أشرك به أعداؤه، وحاربه خصومه، ونسبوا له الولد والصاحبة، وشبهوه بخلقه؛ لأنهم ما قدروه حق قدره.

كذبوا رسله، وقتلوا أنبياءه، وآذوا أولياءه، وكفروا آلاءه وعطلوا صفاته وأسماءه؛ لأنهم ما قدروه حق قدره.

بارزوه بالمعاصي، وأغضبوه بالذنوب، قابلوه بالسيئات، وأتوه بالخطايا؛ لأنهم ما قدروه حق قدره.

هجروا المساجد، تركوا المصاحف، عطلوا الشريعة، أماتوا الدين، انتهكوا المحرمات، لأنهم ما قدروه حق قدره.

كيف لا يقدر له حق قدره، وصفاته جليلة، وأسماؤه جميلة، ومنه كل نعمة كثيرة أو قليلة.

كيف لا يقدر له حق قدره وهو الذي صور فأبدع، وخلق فأحسن، وأعطى فأغنى، وتولى فنصر.

كيف لا يقدر له حق قدره ومن نظر في مخلوقاته وتأمل مصنوعاته وتفكر في موجوداته هاله ذلك وأدهشه وحيره. فكيف لا يقدر من خلق وأوجد وبرأ وصنع وصور، جل في علاه، كيف لا يقدر من رفع السماء، وبسط الأرض، وأرسى الجبال، وأجرى الماء، وسير الهواء، ومد الضياء، وأوجد كل شيء كما شاء، فهو صاحب الجميل ذو المنة له الملك وله الحمد وله الثناء الحسن.

إن من تقدير الله حق قدره طاعته فيما أمر، واجتناب ما نهى عنه وزجر، وتصديقه فيما أخبر، والرضا بما قدر، والشكر على ما يسر، والحمد له على أنه ستر وغفر، مع متابعة رسوله والعمل بكتابه، والقيام بطاعته وهجر معاصيه، والرضا به رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً.

﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾

استوى استواء يليق بجلاله ويتناسب مع كماله، لا يشبهه استواء المخلوق الناقص القصير؛ لأن الله أحد في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته وأفعاله، فاستوى هنا بمعنى علا وصعد، وانظر إلى عظمته في هذا الاستواء فإنه سبحانه وتعالى فوق خلقه فله علو الذات، وعلو القهر، وعلو القدر، علا فقهر، وحكم فقدر، واطلع فستر، وعلم فغفر، وانظر إلى اسم الرحمن وما فيه من صفة الرحمة العامة الشاملة، واختار هنا هذا الاسم؛ لأن رحمته غلبت غضبه، فهو رحمن بالدنيا والآخرة، واستوى يدبر ملكه ويصرف خليقته، فهو بائن من خلقه بذاته، ليس في ذاته شيء من مخلوقاته وليس في مخلوقاته شيء من ذاته، وهو بعلمه مع خلقه، وبحفظه مع أوليائه يعلم ويبصر، ويسمع دبيب النملة السوداء، على الصخرة الصماء، في الليلة الظلماء، ويعلم ويرى حبة الخردل في الصخرة الملساء، ما تسقط من ورقة إلا يعلمها، ولا تلفظ من همسة إلا يسمعها، وما تدب حركة إلا يطلع عليها، يعلم السر وأخفى من السر، ويعلم ما يكون وما هو كائن، وما لم يكن لو كان، كيف يكون.

على العرش استوى يخلق ويرزق، ويقضي ويحكم، ويقدم ويؤخر، ويعز ويذل، ويولي ويعزل، لا يشغله شأن عن شأن، ولا يحوله مكان ولا يحد بزمان، أخذ بالنواصي وملك الرقاب، نصر أولياءه، وسحق أعداءه، من أحبه قربه، ومن حاربه خذله وأدبه، ترفع إليه المسائل، وتصعد إليه الحاجات، وترفع له الأعمال، وتحصى لديه الأقوال، وتكشف عنده الأحوال، يحفظ من في البر، ويرعى من في البحر، يطعم الجائع، ويسقي الظمآن، ويكسو العاري، ويرد الغائب، ويهدي الضال، ويشافي المريض ويعافي المبتلى، وينصر المظلوم، وينجي الملهوف ويعطي المسكين، ويكشف الكرب، ويزيل الخطب، ويسهل الأمر الصعب، ويغفر الذنب، ويقبل التوبة.

على العرش استوى، بنى السماء، وبسط الأرض، وقدّر الأوقات، وأوجد المخلوقات، وبعدما طحى ودهى وأرسى الجبال، ومهد الفجاج، وأخرج الماء والمرعى، ووهب الأرزاق، وقدر الآجال، وكتب المقادير، وأحصى كل شيء عدداً، خلق الخلق بحسبان، أتقن صنعه، وأحسن خلقه، وأبدع موجوداته، واستوى على العرش ليتفرد بالملك وحده، وعلو القهر والقدر وحده، فليس له شريك في ربوبيته، ولا نديد في ألوهيته، ولا شبيه أو مثيل في أسمائه وصفاته، من نازعه الملك محقه، ومن نازعه الكبرياء والعظمة قصمه.

وانظر إشراقة الكلمات الثلاث وجمالها وفخامتها وهي: الرحمن، والعرش، واستوى.

فالرحمن: إعلام لعباده برحمته مع قوة قهره وعلو قدره، ثم هي على صفة المبالغة لعموم الرحمة وعظمتها. والعرش: سرير الملك مع ما في هذه الكلمة من عزة وجبروت وقوة وجلال، وكلمة استوى: فيها من معاني العلو والرفعة والشرف والسؤدد والمجد ما يفوق الأوصاف، ويعجز العقول، ويحير الأفكار، فسبحانه من ملك جبار، ومن عزيز غفار.

وسبحان ربك رب العزة عما يصفون * وسلام على المرسلين * والحمد لله رب العالمين